قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم

ابراهيم العريض

ليس من يتصفح مجلة كمن يمعن في مطالعة كتاب .

فهناك فارق أساسي بين الحالين ، بين ما تتضمنه المجلة — اية مجلة — في ما يصدر من اعدادها شهرياً من المقالات التي تدبجها اقلام مختلفة لها قيمها لأسباب مختلفة بحكم ظروفها العابرة ، وبين الكتاب — لا اي كتاب — يقيم صاحبه فصوله حول نظرية يستجلي غامضها ، او فكرة يكشف عن نواح جديدة فيها ، يهدف بذلك الى جلاء حقيقة غامت على الأذهان ، في مجال الأدب او السياسة او التاريخ . فبينما في الحالة الأولى ليس من الضروري ان تقرأ محتويات المجلة متسلسلة حسب وضعها وترتيبها في المجلة من ألفها الى يائها ... ولا كلها ... وانما تعتمد في المتعة والاختيار على ما يوافق انشراح النفس وهوى الساعة فيما تعرضه المجلة للقارىء من قصة ممتعة او شعر رقيق او مقال رصين ، حتى تنفض يدك أخيراً من العدد بانتهاء الشهر فتستقبل عدداً جديداً ؛ واذا بك في الحالة الثانية ملزم — اذا كنت جاداً — ان تبدأ في المطالعة دون تقديم بين الفصول او تأخير من اول صفحة حيث يبدأ بالموضوع كاتبه حتى يعلن الفراغ من الموضوع حيث ينتهي به البحث فيه في آخر صفحة من الكتاب .

وعلى هذا الأساس كنت تعودت بألا أقرأ في المجلات — اول وقوعها في يدي — غير الأبواب التي تجعلني على صلة بالنشاط الثقافي في الشرق والغرب خلال الشهر الذي مر بي . ويشمل هذا طبعاً ما يدور على صفحات المجلة من مناقشات ، وما يحمله صندوق بريد القراء من مختلف الأقطار ، وما ينوّه به النقاد من النتاج الجديد ، وما يجري بين الفينة والفينة من الاستفتاء حول قضايا يمكن اعتبارها شغل الساعة ، وفي مقدمة هذا كله البرقيات الأدبية التي تجمع الأدباء في مختلف ميادينهم على صعيد واحد . ثم ... ثم امعن في المواضيع الأخرى .

هذا ما جريت عليه دائماً . ولكن ... وقد بات من نصيبي هذه المرة ان أعلق على العدد الماضي من مجلتنا الزاهرة ... ما كان لي ان أرفض طلب صديقي الدكتور سهيل ادريس ، وهو الذي اضطلع بأعباء هذه المجلة ، ولا زال يتكبد مع زملائه ما يتكبد في سبيل إصدارها بهذه الحلة القشيبة ، وان كنت اعرف عن نفسي باني لا ضلع لي في السياسة او الاجتماع ، وانما اختصاصي هو الأدب وحده ، هذا اذا اعتبرت الأدب دولة قائمة بذاتها لا شأن لها بالسياسة او الاجتماع .

وكيف ارفض ؟ فهذه المجلة الفتية وان لم يمض على صدورها غير اشهر معدودة قد سدّت فراغاً في الأدب العربي الحديث ما كان لنا غنى عن سداده في هذا الطور من تاريخنا الخطير ووعينا المضطرب وموقفنا القلق ، فقد التزم أصحابها منذ اول عدد بان يمضوا بها قدماً على هدى وبصيرة في سبيلهم القومي السوي ، لتلقي كلمتها الداوية صريحة ... وان صمّت عن سماعها بعض الآذان .

ما كان إذن بد ان أقرأ هذا العدد — على غير مالوف عادتي — بامعان ، نزولاً على رغبة صديقي الدكتور وحرصاً على ألا يخيب في هذا القلم حسن ظنه . وان أبدأ في تصفحها حيث يجب ان أبدأ ... وذلك من اول صفحة ... حتى تنتهي بي المطالعة الجادة الى ... الى الفهرست .

فماذا رأيت ؟

★

لقد بهرني — والحق يقال — المقال الأول « نحو ادب ديموقراطي » للدكتور عبدالحميد يونس ، فقد تناول فيه كاتبه مشكلة « العقلية العربية » ومنحاها في الأدب (وهي مشكلة الساعة) فعرضها على بساط البحث بشكل لم يبق فيه زيادة لمستزيد ، وكأنما قدر لهذا الكاتب وحده ... بعد اخذ ورد كثير من قبل الآخرين هذه السنوات الطوال . . . ان يسجل قلمه في المشكلة الكلمة الأخيرة .

انا جد مرتاح لهذا المقال . . الذي لخص لنا المشكلة تلخيصاً واعياً دقيقاً ، وانار جوانبها بما تستحق من تأمل وتحقيق . فما هي المشكلة ؟

يقول الدكتور : تتشبث اسطورة «العصر الذهبي» بالعقلية العربية ... تشبثاً جعل وحداتها الجماعية مشدودة إلى مؤخرة

الموكب الانساني المتقدم ابداً إلى الأمام ، وكأنما كتب على هذه الوحدات ان تنظر دائماً إلى ما وراء ، واذا نظرت الى ما امام ، فانما هي النظرة الخاطفة والالتفاتة العجلى تعبر عنها في خفوت لا يكاد يبين . والحياة عندها آخذة في الفساد . فالحضارات القديمة التي نبتت على شواطيء النيل والفراتين اعظم مما جاء بعدها عند قوم ، والبداوة وما فطرت عليه من الظعن والاقامة اعظم من الاستقرار والتمدن عند قوم آخرين . وسلطان هذه الاسطورة على الأدب العربي ، انشاء وتذوقاً وتأريخاً ، اقوى من سلطانها على أي شيء آخر » .

لقد كان الدكتور موفقاً في اعتبار «العصر الذهبي» اسطورة وهل هو الا كذلك ؟ فلقد كان من حق نهضتنا القومية — كما يقول الدكتور — ان تعتمد على هذه الاسطورة وان تساير منطق كل نهضة في إحياء التراث القديم ، وصلا للحاضر بالماضي وتدعيما لمكان الشعب العربي من الحياة وإبرازاً لمقومات شخصيته الاصيلة ولكن هذه النهضة ما لبثت ان جعلت هذا الاحياء غاية في ذاته .. ولم تكتف بذلك ، ولكنها انتخبت جانباً واحداً بذاته من جوانب التراث الادبي ، هو مأثور الادب الرسمي .

هذه هي المشكلة عندنا بجذافيرها ، وانا مع حضرته في النعي على آثارها السيئة على طول الخط .

اما هذا « الادب الرسمي » الذي ننعاه معاً فقد عرفه الدكتور تعريفاً واضحاً بقوله : ان هذا الادب بدوياً كان او حضرياً ، شامياً كان او عراقياً ، إنما هو أدب الطبقة الحاكمة يمكّن لسلطانها المعتمد على العصبية او القائم على الغلب ، ويرفه عن الحكام واقيالهم ويتحدث عنهم ولا يكاد يتحدث عن اصحابه الذين انشأوه .. كالفن المصري في زمن الفراعنة تماماً .

أليس الواقع يؤيد هذا كله ؟ اما عاش تاريخ هذا الأدب — كما يبين الكاتب — يساير تطور الحكم فحسب من مشيخة القبيلة إلى الملك ؟ وكلاهما يعتمد على الوراثة التي تتسم بتعظيم الاصل القديم والمحافظة عليه ؟ ولقد تحدث الدكتور باسهاب عن خطر الاكتفاء بهذا التراث الرسمي في حياتنا حيث جعل التفنن وقفاً على المتعلمين وجعل مقياس الاجادة فيه استدعاء الصور القديمة والتجاريب الماضية .

ولو وقف الدكتور في المامه بالقضية المعلقة عند حدود هذا التعريف لقلنا ان حكمه لا يتجاوز ما كان عليه حال الأدب عندنا في اواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ولكنه قد احسن صنعاً بعد ذلك في تصوير هذا التطور الذي تعرض اليه الأدب في مختلف نواحيه وشتى شؤونه في الفترة ما بين الحربين ، بآية عوامل جديدة بعضها داخلي والآخر خارجي . فهو يعلق على الآثار التي انشأتها نهضتنا الاخيرة عندما ارادت ان تستحدث في الادب تجديداً او ما يشبه التجديد ... كشعر شوقي مثلاً ، وصفه هو بالأدب الكلاسي الجديد ، بقوله :

« والتفسير الاجتماعي لهذه الكلاسية الجديدة إنما هو النزوع القومي المتكتل حول نواة الحاكم . وقد كان المجتمع العربي يشبه في ذلك القوميات الاوربية عند اول ظهورها في التاريخ الحديث » . فما اصدق نظر الكاتب ، وما كان ابعد غوره في تحديده صفات هذا الأدب بقوله بعد ذلك : « وما يتسم به الأدب الكلاسي في جميع عهوده من المناسبة بين الاجزاء والأشكال ، صدى طبيعي لما تتطلبه الحكومة المطلقة في المجتمع من إيثار التوازن والاعتدال ، كما ان غلبة القواعد الحرفية على الأدب وقيامها منه مقام العرف المرعي في الأخلاق ، تدل على ايثار الواجب والتسليم بالتقاليد والخضوع لأحكام السلطان المستند إلى حق غيبي او تاريخي » .

هذه بعض نتائج العوامل الداخلية التي ارى — كما يرى الدكتور — بان الاستعمار الاوربي قد استغلها اكبر استغلال .. دونه استغلال اراضينا . فقد أدرك بفلسفته الميكافيلية ان يعوق التطور ما استطاع ، فتوسل الى حكم الشعب بحكم ملوكه وأمرائه ، وشجع الأدب الذي يعين على بقاء هذا النظام وثباته ثم خلق الطبقة الادارية المنسلخة عن بيئتها الانسلاخ كله ، لترتكز عليها قمة الهرم التي أقامها وسندها . وتم للمستعمرين بذلك الطمأنينة إلى استغراق الشعب العربي في احلام الماضي واجتراره لأسطورة .. « العصر الذهبي » .

أليس هذا كله من الحقيقة في الصميم ؟

ثم يتدرج الكاتب بعد ذلك لشرح العوامل الخارجية التي خلقت لنا الأدب الرومانسي ، فلا يفوته ان يبين خصائص اهله ومنحاهم في الحياة .. ولكني لا اود ان استرسل في الاقتباس ، فالمقال سلسلة متشابكة الحلقات ، والدكتور هنا — كشأنه في التعليق على الأدب الكلاسي — يضع اصبعه على موضع الالم جس النطاسي لنبض العليل .

حقاً انه لمقال قيم أرى من واجبي التنويه به ، وان أهنيء كاتبه عليه كما أهنيء هيئة تحرير المجلة التي يسرت لي التمتع بقراءته

والتعليق عليه . وإذا كان لي على ما يراه الدكتور في أدبنا الحديث ملاحظات ، فاني اعتبر من حسنات قلم الدكتور انه أثارها ، ولعل لعرضها ميداناً غير هذا . فحسبه اني اعتبر مقاله يجزي بذاته — على قصره — عن كتب بأكملها لا يُحسن اصحابها غير الاجترار. واعتقد انه لن تذهب سدى جهود الذين يطالعون هذا المقال بامعان مرة وثانية وثالثة ..

فهو يزيل عن الاذهان ما علق بها في اوحال شرقنا العربي من صدأ .. حول مشكلة الساعة .

★

وماذا بعد ؟

ثم هذا الفصل العميق الذي خص به الناقد الفرنسي الكبير مجلة الآداب . الذي يدور موضوعه حول الخلق الفني وهل للوعي اثر فيه ؟ يقرر الناقد بانه ليس هناك اثر فني يصدر عن الوعي ، وإنما يتدخل الوعي في كل اثر فني كنشاط رقابي لا يتجاوز عمله ذلك بحال . فليس هو الذي يقود اليد التي تكتشف ، ولكنه يسيّر اليد التي تشطب وتضيف وتحوّر في التفاصيل وتوازنها . انه لا يعطي ، ولكنه ينقّح المُعطى .

فالوعي اذن — كما يرى هذا الناقد الحصيف — هو اصل هذه الحركة التي لا تني تُحل مُعطى محل آخر الى ان يصطدم الفنان اخيراً بالشكل الذي لا يسعه بعد ان يرفضه . انه عبقرية « عدم الرضى » ، فهو ينزع من الاعماق الخفية اشكالاً جديدة دائماً ومرفوضة دائماً .

وعلى ذلك فليس من خلق لا يلازمه الوعي ، وليس من وعي إلا ويتحرى القيمة ، وليس من تحر للقيمة إلا ويُحل (محلّ الكاتب كشاهد عن اثره) صورة جمهور مفترض .

والفنان الحق لا يريد في الاساس تصفيق الجمهور المعاصر ، ولا احترام « الحقب البعيدة » ؛ انه لا يريد إلا وجود الاثر . ولكن الآثار الفنية لا توجد إلا لانه يوجد فكر يستقبلها وينظمها ... وعي و « تاريخ للفن » .

يظهر لي ان الناقد قد خلط في آخر مقاله بين وعي الفنان الذي يتدخل في خلق الاثر بنشاط رقابي ، ووعي الناس الذي يتلقى الاثر — بعد — كصورة في سبيل ديمومته عبر الزمان ، وهما حالان مختلفان .

★

ويأتي بعده هذا الحديث الشيق عن الشاعر الانكليزي والتر دي لامير بمناسبة بلوغه الثمانين . فيقول كاتبه الدكتور عبد العزيز : للتعمير مزاياه ومثالبه . فمن مزاياه ان المعمر إذا ظل صحيح الجسم والعقل كان انتاجه ناضجاً قوياً فيه خبرة السنين واتزان الفكرة ؛ ومن مثالبه التحجر والتمسك بطابع القديم والعزوف عن قوالب الانتاج الجديد . ولكنه يعود فينقض هذا الرأي من اساسه بقوله ، ولكن والتر دي لامير من الفنانين القلائل (تأمل هذه الكلمة) الذين احتفظوا بشباب الفكرة والروح والانتاج ، وهو الحبيب الى قرائه اليوم كما كان حبيباً الى قرائه منذ نصف قرن » .

ونحن نقول له تعقيباً على حكمه وهل كان المعمرون المعاصرون الذين ذكر اسماءهم إلا مثله حيوية ونشاطاً ؟ فما قيمة هذا الحكم الشامل ولماذا هذا الاستثناء بكلمة « لكن » في شأن فرد يشاركه في حيويته آخرون ، ما دام كل من ابسن النرويجي واندريه جيد الفرنسي وبرنارد شو الايرلندي كانوا حتى امس وبرتراند رسل الانكليزي هو اليوم مثل هذا الشاعر شباباً وحيوية ونشاطاً ؟

اظن ان السر كل السر هنا هو في الشرط الذي قدمه الكاتب .. ثم نسيه ، هذا الشرط الذي تراه في قوله (إذا ظل المعمر صحيح الجسم والعقل ...) . وإذا رجعت المسألة الى « إذا » فنحن نقول مع المتنبي :

وإذا الشيخ قال « اف ! » فما مل حياة ، وإنما الضعف ملا

وعلى كل فمهما يكن لنبوغ دي لامير وعبقريته من تعليل فان من اكبر ميزات هذا الشاعر هو ان القارىء يشعر لدى انشاده بانه يستهويه لتأمل الاشياء كما لو كانت آخر مرة ، حرصاً على الا تفوت الساعة بمبهجاتها الى غير رجوع . فهو في هذه الخاصة بعكس معاصره الشاعر داوس الانكليزي الذي يوهم القارىء بانه يرى الاشياء لأول وهلة مع كونها واقعة تحت حيز مداركه كل ساعة من العمر ، كما لو لم يكن للقارىء بها سابق عهد .

وهكذا في الفن الطفولة الخالدة .

★

اما في استفتاء الآداب عن اسباب ضعف المسرحية العربية فأظن ان جواب الاستاذ توفيق الحكيم عليه كان حكيما للغاية، وقد اشترك معه بقية الاساتذة مبدئياً في الحكم بان المسرحية نوع لا يمت بصلة الى اصول الادب العربي . اما ضعفها عندنا فليس من سبيل لعلاجه إلا كما قال الاستاذ تيمور « باشاعة

الوعي الفني في محيط الثقافة العربية » ، نعم الوعي الفني بأوسع معانيه .. والنظر في التاريخ بعين الجد .

★

وفي « موكب الاطياف » حاول كاتبه الروائي ان يعلل لنا لماذا هو يكتب ؟ فهو يقول « لا يكتب الكاتب إلا ليعبر عن حبه أو بغضه ، أو عن حبه وبغضه .. وأياً كان الاشخاص الذين نصورهم وأية كانت الاشياء التي نرسمها فنحن لا نصور ولا نرسم إلا وجوه اهوائنا » .

اما حكمه في « الرواية » بانها « هي الثمرة الانانية لنهم لا يستطيع الواقع ان يرضيه » فلا ادري إذا كان جميع الروائيين يوافقونه عليه . بيد ان الحق هو ما قاله في الختام « ان اشخاص الرواية يظلون عائشين فينا (اي في الروائيين) كما يظلون في ذاكرة القارىء إذا عرفنا ان نكتسبهم الحياة التي ينعمون بها في نفوسنا »

الا تحسّ معي بان فيما يقوله الروائي هنا انعكاساً للفكرة التي تناولها مقال « الوعي والخلق الفني » ؟

★

وهناك كلمة زميلنا الاستاذ الناعوري « نحو التجديد الصحيح » وانا مع تقديري لحسن نوايا الزميل الكريم اهيب به ، وقد جشم نفسه الكتابة حول هذا الموضوع ، بان يقرأ بامعان افتتاحية العدد نفسه ؛ فالذي لايعرف من وجوه التجديد إلا وجهاً واحداً ، لا اظنه يعرف عن التجديد شيئاً . ولعل مقال « تربية الفرد لألدوس هكزلي » على اختصاره اكثر عائدة على ابناء هذا الجيل واحسن احاطة بما ينقصنا بين الامم من كل ما يحرره بعض المحررين عندنا ، يتصدون للتوجيه وهم بانفسهم لا يعلمون انى يتوجهون !

★

اما كلمة الأستاذ درويش « بين الانضواء والالتزام » فبالرغم من كونها جاءت حلقة لا ادري اذا كانت هي الأخيرة في سلسلة النقاش الأدبي ، فانها ممتعة . ولعل زاوية نظرها لا تختلف كثيراً عن الزاوية التي نظر منها الدكتور عبد الحميد يونس الى الموضوع ، وان كانت الأولى من الناحية التاريخية اكثر شمولاً . ولا أظنني استطيع ان انصف الأستاذ درويش في كلمات .

★

بقيت قصص العدد وقصائده ، فما اشبه هذين البابين في تنسيق هندسة العدد ببابي قصر تطل منهما على زهر وريحان .

فهناك مثلاً قصة الأستاذ شوقي بغدادي « حيّنا يبصق دما » وهي واقعية يُفرض في أحداثها انها تجري في مدينة عربية ، قد اصاب بها صاحبها عصفورين بحجر . وتأتي بعدها قصة « اذا غاب المساء » وهي تقوم على فكرة بسيطة ... فقر وذل ، ولعل جمالها هو في هذه البساطة . ثم قصة الآنسة امينة قطب « عيد السعداء » وهي ايضاً واقعية لا تصور غير حالة البؤس في هذه الربوع .

ولكني وقد قرأت هذه القصص الثلاث ومصدرها كما ترى ثلاث جهات مختلفة في شرقنا العربي يختلج في نفسي سؤال واحد اخذ يقض علي مضجعي .. فهل معنى هذا ان بلادنا كلها قذارة واوساخ ؟ .

★

اما الشعر فلاقبل لي بتفصيل الحديث فيه ، فقد كان معرضاً لشتى المذاهب والنزعات . فحسب القطع المنشورة انها جميعاً تحمل طابع العصر وتنسلك تحت راية الفن في هذا الدور القلق من تطور ادبنا الحديث ، على قرب او بعد احياناً من الهدف السامي الذي تهدف اليه كل الفنون .

★

واذا كان لي ان اقول كلمة شاملة حول هذا العدد في الختام فهو اني احمد الله على ان جلّ المواضيع فيه كانت خالصة لوجه الأدب ، مما اتاح لي بحرية فرصة التعليق . لا على السياسة او الاقتصاد اللذين لا احسن من شؤونهما كثيراً ولا قليلاً .

ابراهيم العريض

قصص للشباب والطلاب

سلسلة كتب للتدريس والمطالعة

للاستاذ محمد المجذوب

صدر منها : مدينة التماثيل

قاهر الصحراء . الناشر : دار العلم للملايين

طالعوا مجلة « الاسبوع »

المجلة العراقية الشهرية الراقية ، يشترك في تحريرها الجيل الواعي من الادباء

صاحبها ورئيس تحريرها : خالص عزمي